

أدب القوة وأدب الضعف

للاستاذ محمود الخفيف

أحسن إذ تناول هذا الموضوع أنى بين عاملين : عامل الحياء وعامل الفخر . أما الحياء فاول دواعيه أن أعقب أنا الصغير على مقال أستاذنا العلامة احمد امين . وأما الفخر فخسى أن يقرأ لى الاستاذ سطوراً قد تحظى برضاه في موضوع كهذا يعنيه .

يرى الاستاذ د أن الشاعر المجيد هو الذى يثير العواطف بقدر، ويبينها على أساس عميق ، ويرى أن الأدب فى العصر العباسى كان أدبا ضعيفا، إن أنت حصرت وجدته بين باك ومادح ومستهتر، ثم يرى أن عود الأدب الشرقى على نحو عود المغنى الشرقى أشجى أغانيه احزنها، وخير نغماته أبكاها .

وعلى ذلك يسمى الاستاذ ذلك النوع من الأدب الباكي الذى يتعمق فى إثارة العواطف أدبا مائعا، وذلك الأدب الذى لا يثيرها إلا بقدر أدبا قويا ، فهل يسمح لى الاستاذ أن أتجرا فأقلب هذا الوضع ، فاسمى ذلك الأدب الوجدانى الحساد الذى يبالغ فى إثارة العواطف أدبا قويا ، وذلك الأدب الذى لا يمت الى العاطفة بصلة قوية أدبا جافا أو مائعا ؟

أرى الانغام الوجدانية الحادة أساس الأدب الحاد، ولن يكون الأدب الحاد مائعا ، وأرى العبارات الخالية بما يثير العواطف أو التى تثيرها بقدر أساس التفكير العقلى ، والخطوة الأولى نحو الفلسفة د القوة ، ولن تكون الفلسفة القوية أدبا قويا ، وعلى ذلك فما يسميه الاستاذ أدبا مائعا هو فى الواقع أدب قوي، وأما ما يسميه أدبا قويا فهو فلسفة قوية .

والأدب والفلسفة شيان : فالأدب لغة القلب ، والفلسفة لغة العقل ، والانسان إنما يبدأ بقلبه فيفرح أو يبكى ويحب أو يبغض ويرضى أو يغضب ويأمل أو ييأس ويثور أو يهدأ حسب ما يحس من عواطف ، فان كان لابد من تخفيف حماسه ، فليكن ذلك بشئ من حدة عقله ، ولكنى لا أرى تجريده من ذلك الحساس ولا أحسب ذلك ممكنا ، إذ ما القلب بغير حماس ؟ ثم ما الأدب بغير عاطفة ؟

وإذا اشتدت العاطفة فكيف يكون الأدب مائعا ، وكيف تشتد العاطفة إلا إذا اشتدت بواعثها؟ وإذا ما اشتدت بواعثها فما القوة إن لم تكن القوة فى إظهارها قوية رائعة ؟ أن الانسان بطبعه عسوف عنوف ، لا يسكن إلا لعجز ،

ولا يرتدع إلا من خوف ، ولا يعفو إلا عن ضعف ، ولا يقنع إلا مضطرا ، ولو أطلق له العنان لكان شره مستطيرا ومكره خطيرا يبد أنه على غلظته لا يخلو قلبه من عواطف نديلة ، ولكنها خامدة، وميول خيرة ولكنها كامنة ، ولذلك فهي فى حاجة الى الابانة والتهيئة ، والأدب الوجدانى الحاد يخاطب القلوب فيهرها ويستثير ما كمن فيها من نبل فيبعثه ، ولذلك كان هو عماد المصلحين ودعاة الانسانية ، فانك ان تخاطب الانسان فى منطق وفى عبارات جافة فقلبا يصغى اليك، وان استمع قليلا ما يعى ، وإن أنت بدأت بقلبه فبرزته فى رفق وألته بأغنام قيثارتك ثم أهبت به فقد هوى اليك . تحدث شكسبير عن تأثير الموسيقى فى النفوس فبدأ بالعجوات فقال ما بال تلك الوحوش الكاسرة تسمع أناشيد الموسيقى فتقعى متراخية وتظهر كأنها مأخوذة حائرة ؟ وما بال ذلك العدد المضطرب من الخيل الجالحة يسمع الموسيقى فيهدأ لجأة ويسير فى نظام كأنما تذهب الانغام نائثرته وتسحره عن نفسه .

والأدب الوجدانى موسيقى النفس، وموقفه من القلوب البشرية الفطنة موقف الموسيقى الحسية من تلك الخلائق الهائمة النائرة ، فهو الذى ينفذ الى القلب ويختلط بالنفس فيلام بين ذراتها وينظم موجاتها . ويقلل من عنف الانسان وجبروته فيجعله رقيقا وادعا . ولا تثير على الشاعر، أو القصصى، أن يبكى فيبكي عيوننا تكاد أن تتحجر ، ويفتح آذانا ضربت عليها المطامع المادية ويهز قلوبا كانت لا تحفل دعاء أو تحيب رجاء .

وهو أن بكى على نفسه فغير ملوم، فانما ينطق بما يحس، وبذلك ينفس عن قلبه وقد تخفق قلوب معه وتهوى أفئدة اليه ، وها هو ذا البارودى الفارس يقول :

أفى الحق أن تبكى الحائم شجوها

ويلى فلا يبكى على نفسه حر ؟

وماذا عليهم إن ترنم شاعر

بقافية لا عيب فيها ولا نكر ؟

وهو فى بكائه غير ضعيف ، بل أن حدة عواطفه لتنهض دليلا على قوته ، وإلا فما أضعف جيته ولا مرتين وهو جوا وأبا فراس والمعرى وغيرهم ممن ضربوا على أوتار حزينة باكية ! ولقد بكى هؤلاء فى شبابهم أعني فى أيام قوتهم وبكوا القوة احساسهم ونبالة قصدهم وجمال انسانيتهم .

ومن البلية أن يسام أخو الأسى رعى التجلد وهو غير جماد وليس من الضروري أن يكون الشعر المتناهى فى وصف ما يلاقى الحب من عذاب غير مؤسس على عاطفة صحيحة ، لأن

فلسفة سينوزا

للاستاذ زكي نجيب محمود

لم يكد سينوزا يبلغ سن الشباب، حتى انكب على الفلسفة يدرسها دراسة صادفت في نفسه هوى. فأخذ ينهل من مواردها العذبة، ويؤثرها على كل شيء. وقد طالع فيما طالع فلسفة برونو فوفقت منه آراؤه موقع الإعجاب، وامتلاً ذهنه بما قاله ذلك الفيلسوف من: أن الوجود في جوهره وحدة متجانسة، وأن تعددت ظواهرها. اذ نشأت جميعها من أصل واحد، ثم اتخذت الواما مختلفة لا تغير من جوهر طبيعتها المتجانسة.

كذلك أعجبه رأى برونو المذكور القائل بأن الروح والمادة شيء واحد، فكل ذرة من ذرات الكون يتحد فيها الجانبان: الروحي والمادي، وعنده ان موضوع الفلسفة هو ادراك تلك الوحدة التي تربط هذه الأشئات المتضاربة في الظاهر فترى الروح في المادة، كما تلس المادة في الروح.

سم قرأ سينوزا فلسفة ديكارت قراءة درس وتمحيص، فدعاه الى التفكير الطويل رأى ديكارت في تقسيم الكون الى شطرين: شطر مادي متحد في الجوهر على الرغم مما يبدو في الأجسام المادية من اختلاف، وشرط روحي متجانس في جوهره كذلك، وهو عبارة عن مجموع القوى العقلية الحالية في مختلف الأجسام، وتدير هذين الشطرين وتشرف عليهما قوة الهية عليا... قرأ سينوزا ذلك فلم يوافق على شطر الكون، واختمرت في نفسه على الفور فكرة وحدة الوجود التي تقول بأن الكون شطر واحد لا يتجزأ، وهذه الفكرة هي المحور الذي تدور حوله فلسفة سينوزا، وها نحن أولاء نتناولها بالشرح والتحليل.

يقول سينوزا ان في الكون حقيقة واحدة خالدة، هي عبارة عن قانون عام شامل لا ينقص ولا يزيد. هذه الحقيقة الخالدة، أو هذا القانون الشامل، لا يمكن ان يعبر عن نفسه ويفصح عن حقيقته الا بواسطة الأجسام المادية، فانخذ من تلك المادة التي تملأ جوانب الكون، قوالب وأشكالا لكي يبرز عن طريقها الى عالم الواقع المحسوس، وهذه الصور والأشكال المادية التي تتخذ وسيلة للتعبير عن ذلك

مثل هذا الشعر يكون ترجمة لآحساس الشاعر فما دام انه محب فله أن يعبر عما يحس، وليس لنا أن نتهمه في ذلك بضعف، بل أنه يكون ضعيفا حقاً ان هو أحس عذاباً من وراء حبه ثم لم يستطع الافصاح عنه.

ولم يكن الأدب العباسي ضعيفاً، لما جاء فيه من بكاء ومديح واستهتار، فان الأدب في كل عصر صورة لذلك العصر، فاذا عبر أدباء العباسيين عما يحسون فلم تهمهم بالضعف؟ وإذا كان أدبهم حزيناً با كياً يتخلله المديح والاستهتار فكيف كان يتسنى لهم أدب غيره، وإذا هم تناولوا في غير عزة وتفاخروا في غير غفر وضحكوا في غير مزح، افما كنا نتهم ادبهم بأنه سقيم زائف أو بعبارة أخرى ضعيف مائع؟

ثم أن الضعف السياسي لا يستلزم أن يكون وراءه ضعف في الأدب، بل لقد يكون الضعف السياسي ذاته سبباً قوياً من أسباب قوة الأدب، كما يحدث عند انقسام الدول الواسعة كما كان الحال في القرن الرابع، وكما كان الحال عند الإغريق في مدنهم الحكومية وكما كان الحال في النهضة الإيطالية الحديثة.

وليت شعري لم لا يكون بكاء الشعوب على ما يصيبها قوة واستنهاضاً للهم؟ هزمت فرنسا في حرب السبعين وخرجت ألمانيا متفاخرة بالنصر، فخطب أحد أدباء الفرنسيين الألمان الظافرين بقوله «نعم قد انتصرتم علينا ولكن ليس لديكم شاعر يشيد بنصركم كشاعرنا هذا الذي يبكينا على مصابنا فهل كان بكاء الفرنسيين في ذلك الوقت ضعفاً؟ اللهم لا.

وأما ما جاء عن مصعب بن الزبير حين استخفه الطرب، وعن استخفاف المنصور به لذلك حتى جعله يمثل تلك الآليات التي أوردها الاستاذ، فاقول أن مصعباً كان متغزلاً وأن المنصور كان متفاخراً وشتان بين الموقفين، فهذا تستملح فيه الرقة واللين وذلك لا يليق فيه إلا الصرامة والشدة. وإذا كان في كلام مصعب ضعف فاذا يكون في كلام الرشيد وهو يخاطب جارية بهذا البيت:

أما يكفيك أنك تملكني وأن الناس كلهم عبيدي؟

وبعد فيعجبني من الاستاذ قوله أن أرقى الأدب في نظره ما احيا الضمير، وزاد حياة الناس قوة، وهذا في رأي هو الأدب الوجداني القوي، هو ذلك الأدب الذي يرقق القلوب، ويستثير الهمم، ويظهر النفوس، هو ذلك الأدب الذي يجعل من الشيخ شاباً فتياً، وهو ذلك الأدب الذي يملأ المحاجر بالدموع والقلوب بالشفقة والحنان؟